مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: أساليب تنميط الآخر العربي في مقدمة كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة"
اسم الكاتب: د. مانيا بيطاري
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2876
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 01:58 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

أساليب تنميط الآخر العربي في مقدمة كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة"

د. مانيا بيطاري*

الملخص

إن هذا البحث وهو بعنوان: (أساليب تنميط الآخر العربي في مقدمة كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة") يقع ضمن البحوث النقدية والثقافية؛ لأنه يسلِّط الضوء على أكثر أعمال المستشرقين أهمية وتأثيرًا في تكوين صورة الشرق لدى القارئ الغربي.

زار البريطاني إدوارد وليم لين مصرَ ثلاث مرات في منتصف القرن التاسع عشر، وهناك تعلَّم اللغة العربية واضَّطلع بها، وخَبِرَ الحياة الاجتماعية، ولمّا عاد إلى بريطانية ترجم كتاب "ألف ليلة وليلة" إلى الإنكليزية، وألزم نهاية كلّ فصل بملاحظات وشروح وتعليقات، حرَّرها بعد وفاته ابن أخيه إستانلي لين بول في كتاب مستقل بعنوان " المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة".

كشفت دراسة مقدمة هذا الكتاب عن منهجية تنميط الآخر الشّرقي في صورة سلبية معمَّمة على الشرق كلِّه على مرِّ العصور؛ فالشرقُ هو هذا الفضاء العجائبي غير التاريخي؛ الزمن فيه متوقف؛ يغيب عنه التطور مقابل الغرب التاريخي الآخذ بالتطور عبر الأجيال في الدولة الغربيّة الكليّة العالميّة التي تمثِّل بنموذجها نهاية التاريخ التي بشّر بها الفيلسوف الألماني هيجل، ومن ثمّ حمل لواءَها الفيلسوف الأمريكي فرانسيس فوكوياما.

* جامعة الفرات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بدير الزور، قسم اللغة العربية.

Methods of Stereotyping the Arab Other In the Introduction to «The Arabic Community in the Time of One Thousand Nights and a Night»

Dr. Manya Bittari[**]

Abstract

This research, titled «*Methods of Stereotyping the Arab Other*» In the introduction to «***The Arabic Community in the Time of One Thousand Nights and a Night***» is classified among the critical and cultural research as it sheds light on the most important and impressive works for the Orientalists in creating the image of the East for the Western Reader.

The British Edward William Lane visited Egypt three times in the middle of the 19th century, and there he learned the Arabic Language in depth and experienced Arab's social life; when he came back to Britain, he translated the book «***One Thousand Nights and a Night***» into English and added in the end of each chapter notes, explanations and comments. After his death, his nephew Stanely Lane Poole edited and published this book separately under the title «***The Arabic Community in the Time of One Thousand Nights and a Night***». The study of the introduction to this book has revealed the methodology of negative stereotyping of the Other, the Arab or the Eastern which is generalized in the whole East along the ages. The East is always presented as ahistorical mysterious space where time is frozen and development is at a standstill versus the historical west which is continuously in progress across the generations and within the global Western State that presents the end history which the Germanic Philosopher Hegel prophesied and which the American Philosopher Francis Fukuyama advocated later.

[**] Al-Furat University, College of Arts and Humanities in Deir Ezzor, Department of Arabic Language.

ترجم إدوارد وليم لين كتاب "ألف ليلة وليلة"، ولم يكن قانعًا بمجرد نقل النص العربي؛ فقد لاحظ أن الأساليب والأفكار الموصوفة هناك قد تطلبت تعليقًا من شأنه أن يوضّح الأفكارَ لقارئ غير متعلِّم؛ من أجل هذا ألحق لين نهايةَ كل فصل من الترجمة بسلسلة من ملاحظات الشرح، تصل -غالبًا- إلى حدِّ المقالات المحكمة لتحديد السِّمات الأساسية في الحياة المحمدية[1]!

فقد تمَّ التعرُّف إلى هذه الملاحظات من قبل المستشرقين منذ مدة طويلة على أنّها الصورة الأكثر اكتمالًا لوجود المجتمع العربي، أو على الأغلب للعرب والفرس والإغريق، لكن تبقى الحياة المحمديِّة والظروف المعيشة والحدود الفاصلة للأفق الذهني للعرب أكثر وضوحًا من غيرها. على أيِّ حال، حافظت هذه الملاحظات على موضعها وترتيبها كما كانت في الأجزاء الثلاثة الكبيرة، وخضعت لقانون لا يأخذ في الحسبان موضوعات هذه الملاحظات؛ بل القصص التي وضَّحتها ونقلتها. وتمتاز هذه القصص بصعوبة مناقشتها وقراءتها المربكة على نحو متعاقب، هذا إن لم تكن مستحيلة.

فقد تمَّت -في بعض الأحيان- مناقشة إعادة طباعة الملاحظات الأساسية في شكل ملائم وسلسلة طبيعية من إمكانها أن تصبح إضافة مرحبًا بها في كتب الباحثين إلى جانب المكتبة العامة. إن نشر الانطباع والتأثير لـ "ألف ليلة وليلة" يهيِّئ فرصة مناقشة الموضوع، ومن ثمّ ستكون النتيجة جمع هذه المناقشات في هذا المجلد الجديد.

إن مهمَّتي[2] كمحرِّر بسيطة: فقد رفضت -على نحو حصري- تلك الملاحظات التي لا تملك حجمًا من الأهمية بمعزل عن العمل الأساسي كالملاحظات المسرودة، مثل: تقديم الأسماء الملائمة الظاهرة في الليالي العربية بما يقابلها في اللغة الإنكليزية، وتقديم

---

[1]- يرى الباحث أنه من الممكن أن يكون المستشرق إدوارد وليم لين قد استخدم مصطلح "المحمدية" بدل "الإسلامية" من باب مقاربة نسبة الديانة المسيحية إلى النبيِّ المسيح عليه السلام؛ والتزم المحرِّر إستانلي لين بول بهذا المصطلح من بعده، ومن ثمَّ أخذ به بعض الباحثين العرب مثل: الدكتور نبيل طعمة والمفكر العربي محمد عابد الجابري في كتابه "تكوين العقل العربي" في سياق حديثه عن الديانات التي كانت قائمة في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ راجع: الجابري، محمد عابد: تكوين العقل العربي، نقد العقل العربي(1)، ط10، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص: 136-137؛ نقد الدكتور خالد كبير علال استخدامَ الجابري المصطلح "المحمدية" بدل "الإسلامية"؛ فهو يرى أن هذا المصطلح "عام فيه جانب صحيح، وآخر مشبوه، مع العلم أن القرآن لم يستخدمه، ولم يعثر له على ذكر في المتون الحديثيَّة، ولكن استخدمه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، والجانب المشبوه منه هو أنه قد يَفهم منه البعضُ أن الرسالة المحمديَّة هي دين بشري جاء به محمد، فنُسب ذلك إليه، فقيل: الدين المحمديّ، الدعوة المحمديّة، والرسالة المحمديّة"؛ راجع: علال، خالد كبير: الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون ومحمد الجابري/دراسة تحليلية هادفة، ط1، دار المحتسب، الجزائر، 2008، ص: 106.

[2]- إستانلي لين بول محرِّر كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة".

تقرير كتابي عن التاريخ المحتمل لتأليف الحكايات، وأشياء أخرى متصلة على نحو متلازم بالحكايات نفسها. رتّبت البقية في سلسلة من الفصول مُدْمِجًا الملاحظات القصيرة والطويلة، ومانحًا –قدر الإمكان– كلَّ قسم جوًا من الوحدة. وأنا لم أتدخل في شكل الملاحظات كما هي موجودة في طبعة 1859 على نحو أبعد من التغييرات اللفظية التي اقتضاها فصل الملاحظات عن النص الذي تشير إليه، والتغييرات العرضية في علامات التنقيط، والتغييرات البسيطة في نطق الأسماء الشّرقية على نحو يوافق الطريقة الأخيرة الرائعة لعمي لين[3].

إن مثل تلك التغييرات الطفيفة التي قمت بها، أعتقد أنني –على الأرجح– قد صنعتها بثقة وعلى نحو كان سيلقى استحسانًا من قبل المؤلف ذاته. وأنا لم أضف شيئًا من عندي سوى ملاحظات قليلة مميّزة بالأقواس المربعة، ومصطلحات جديدة ودقيقة جدًا (حيث كل الكلمات العربية تمَّ شرحها)، وقائمة بالنصوص المقتبسة.

ثمّة من يعترض على عنوان الكتاب نظرًا إلى أن القسم الأساسي من الملاحظات يعود إلى ذكريات مستر لين وتجربته الخاصة في القاهرة في أثناء المدة الأولى من القرن الحالي. إن فحوى المسألة –على أي حال– أمر قروسطيّ[4]؛ فكلّ الملاحظات لها الغرض نفسه: شرح أحوال الحياة والمجتمع كما كانت في الوقت الذي أخذت فيه "ألف ليلة وليلة" شكلها المجموع الحالي.

وضع مستر لين نسخته المنقحة أو هذا المؤلَّف؛ مستندًا إلى خلفيات متنوعة تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر. وبناءً على هذا، فإن نسبة كبيرة من هذه الملاحظات تتألف من مستخلصات المؤرخين والكتاب الأكثر شهرة في نهاية العصور الوسطى، مثل: ابن الجوزي (ت1256)، والقزويني (ت1283)، وابن الوردي (ت1348)، وابن خلدون (ت1406)، والمقريزي (1441)، والسيوطي (ت1505). إن هؤلاء كلَّهم عرفوا المجتمع العربي الموصوف بدقّة في "ألف ليلة وليلة". إنَّ معظم هذه الكتابات لم تكن

[3]– إدوارد وليم لين الذي ترجم "ألف ليلة وليلة"، وألزم نهاية كل فصل بملاحظات وتعليقات حرَّرها ابن أخيه إستانلي لين بول بعد وفاته.

[4]– وردت في النص الأصل "mediaeval"، وتعني القرون الوسطى أو العصور الوسطى؛ وهي التسمية التي اصطلح على إطلاقها على المرحلة الناشئة من تقسيم تاريخ أوربا إلى ثلاثة عصور هي: العصور الوسطى المبكرة، والعصور المتوسطة، والعصور المتأخرة؛ وتراوح العصور الوسطى من نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية نحو القرن الخامس حتى قيام الدول الملكية، وبداية الكشوفات الجغرافية الأوربية، وعودة النزعة الإنسانية وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي عام 1517م. هذه الأحداث هي التي أدت إلى دخول أوربا في مرحلة بداية الحداثة التي تلتها مرحلة الثورة الصناعية؛ راجع: زناني، أنور محمود: قاموس المصطلحات التاريخية، إسلامي، وسيط، حديث، ومعاصر (إنكليزي–عربي)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2007، ص: 223.

منشورة عندما كُتِبت الملاحظات؛ فقد استمدّ مستر لين مقتبساته من المخطوطات التي كانت بحوزته، وظلّ بعضها من دون تحرير. ومع أن كثيرًا من تلك المخطوطات طُبع في مطبعة "بولاق" وأماكن أخرى، فقد كان تزهُّدُ الكتَّاب الأوربيين في استخدام هذه المخطوطات مدهشًا!

أضاف مستر لين إلى تسجيلات هؤلاء المؤلفين القروسطيين نتائج تجربته الشخصية، وكان مسؤولًا عن غياب المفارقة التاريخية، ومفادُها: أن المجتمع العربي الذي عاش فيه صلاح الدين الأيوبي، وبيبرس، وبرقوق، قد حفظ له المؤرخون القوميون تسجيلات حيّة وكاملة، وظلَّت هذه التسجيلات راسخة لا تختلف -غالبًا- عن مجتمع "محمد علي". أمضى مستر لين سنوات كثيرة لتحصيل تلك المعرفة الحميمة بين سكان القاهرة. إن الحياة التي شهدها لين هي الحياة نفسها التي وصفها المقريزي والسيوطي، وكان لين يفضّل التنقُّل في المجتمع العربي النقيّ (في زمن محمد علي) الذي كان في الروح، والعادات، وأساسيات الحياة المجتمعَ نفسَه الذي سبق للمرء أن افتخر فيه بكل من أعلامه: هارون الرشيد، جعفر البرمكي، وأبي نواس. إن استمرار تقاليد المجتمع العربي ظلَّ صامدًا، على نحو جزئيّ، من عهد الخلافة الأول حتَّى القرن الحالي، ومثل هذا الاستمرار نجده -على الأقل- في تلك الحواضر الكبرى الإسلامية من قبيل "القاهرة"، و"دمشق"، و"بغداد" التي كان التأثير الأوربي فيها مشغولًا بمحو تلك التقاليد. حاولتِ القاهرة أن تكون خلال مدة طويلة من الزمن الابنة غير الشرعية لباريس (المهجَّنة المزيَّفة) بدلًا من المدينة الرائعة للمعزّ وصلاح الدين الأيوبي؛ وحاولت أن تنسى تقاليدها في أيام انتصارات المسلمين، وتنسى المآثر الخالدة للأبطال النبلاء في الحروب الصليبية! سيكون من المستحيل الآن جمع التفاصيل الدقيقة للمجتمع المحمديّ على نحو صافٍ، هذا المجتمع الذي وجده مستر لين جاهزًا وماثلًا أمام عينيه وبحوزته؛ ولهذا من حسن الحظ أن يكون تسجيل المجتمع العربي المستمر بثباته بدءًا من عهد الخلافة؛ مرورًا بالعصر المملوكي في العصور الوسطى؛ وصولًا إلى مصر في عهد محمد علي، محفوظًا بإخلاص في العملين "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم"[5] وفي ملاحظات "ألف ليلة وليلة"، اللذين قُدِّما أول مرة على نحو منفصل ومتعاقب[6].

---

[5]- لين، إدوارد وليم: عادات المصريين المحدّثين وتقاليدهم (مصر ما بين 1833- 1835)، تر: سُهير دسُّوم، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م.

[6]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, Dover Publication, Inc, First Edition , Mineola, New York, 2004.

كلمة دار ناشر كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة":

ترجم البريطاني إدوارد وليم لين الليالي العربية بعد زيارته مصرَ في منتصف القرن التاسع عشر، مُلزمًا نهاية كلِّ فصل بملاحظات محكمة موضِّحة؛ مما جعل من الكتاب موسوعة فعلية لحياة الشرق الأوسط وأساليبها. يقتصر الجزء الحالي على ملاحظات لين كما ظهرت في النسخة الأصلية 1859؛ مزوَّدة بصورة مغلوط فيها للمجتمع الإسلامي كما كان موجودًا في العصور الوسطى، أي في الزمن الذي ظهرت فيه الليالي العربية أول مرة.

تتضمَّن النسخة الأصلية للقصص الخيالية دروسًا للمسلمين، وتحتفل ببروز الطبقات التجارية، وتصف صعود بغداد كمركز للإمبراطورية الإسلامية. وثمَّة فصول خاصة تأخذ بأهمية الدين، والأدب، والاحتفالات، والتعليم، إلى جانب تجارة الرقيق، ودور النساء في المجتمع، والشعائر المرصودة للموتى.

إن تزويد الليالي العربية بخلفية اجتماعية حيَّة –وهو مؤلَّف[7] من أكثر الإصدارات الأدبية أهمية في الحضارة الإسلامية الكلاسيكية– عملٌ ممتع وسيكون إضافة مرحبًا بها على رفوف مكتبة الباحثين وأي شخص يهتم بالثقافة في الشرق الأوسط[8] .

1- المقدمة:

إن موضوع هذا البحث، وهو بعنوان (أساليب تنميط الآخر العربي في مقدِّمة كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة") يقع ضمن البحوث الثقافية والنقدية؛ لأنه يسلِّط الضوء على أكثر أعمال المستشرقين أهمية وتأثيرًا في تكوين صورة الشرق لدى القارئ الغربي. والمقصود بالصورة (التمثيل)، أي شيء يأخذ مكاناً لشخص ما، أو شيء للآخر[9]؛ فالتمثيل أو(العرض) ليس صورة بالمعنى (البلاستيكي) أو الفني[10]؛ إنها ليست أيقونة Icon"؛ لأن الإشارة لا تكون أيقونة إلا إذا دلت على الشيء بفضل التشابه أو التماثل[11]؛

---

[7]– اسم المؤلَّف: "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة".

[8]– لم يُذكَر اسم كاتب كلمة دار النشر.

[9]– باجو، دانييل هنري: من الصورة الثقافية إلى الخيال، من كتاب "الوجيز في الأدب المقارن"، إشراف بيير برونيل، إيف شيفريل، تر: غسّان السيد، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1999، ص: 151.

[10]– لمزيد من التوسع في مفهوم الصورة وأنواعها مثل الصورة المتخيلة، والمجازية، والبلاغية، والذهنية، والرمزية، والكاريكاتيرية، واللفظية؛ راجع: وهبة، مجدي؛ المهندس، كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص: 226–228؛ ولمزيد من التوسع في مفهوم الصورة الفلسفية راجع: صليبا، جميل: المعجم الفلسفي: ج1، دار الكتاب اللبناني–مكتبة المدرسة، بيروت، 1982، ص: 742.

[11]– لمزيد من التوسع في مفهوم الأيقونة راجع: شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص: 242؛ ولمزيد من التوسع في الفرق بين الأيقونة، والرمز، والعلامة، راجع: أرمينكو، فرانسواز: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1986، ص: 19.

فالصورة ليست صورة بالمعنى التشابهي كالأيقونة ولكن بالمعنى المرجعي[12]؛ فالصورة تعبير أدبي أو غيره عن تباعد ذي دلالة بين نظامين من الواقع الثقافي، أو الصورة عرض لواقع ثقافي؛ يستطيع من خلالها الأفراد الذين شكلوها (أو الذين يتقاسمونها أو ينشرونها) أن يكشفوا أو يترجموا الفضاء الثقافي أو الإيديولوجي الذي يقعون ضمنه"[13].

بحثنا في هذه المقدمة أمورًا عدَّة ، هي على الترتيب: أهميّةُ موضوع البحث وأسباب اختياره، والمنهج المتَّبع في إعداد هذا البحث.

- **أهمية موضوع البحث وأسباب اختياره:**

- تعود أهمية موضوع هذا البحث –وهي السبب في اختياره– إلى مدى التأثير السلبي لكتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة" في صورة الشرق لدى الغرب؛ إذ ألّف هذا الكتاب إدوارد وليم لين، وهو من أبرز المستشرقين الإنكليز. سافر لين إلى مصر ثلاث مرات: كانت المرة الأولى عام 1825، حيث مكث بمصر ثلاثة أعوام، والمرة الثانية عام 1833، حيث مكث بمصر عامين، والمرة الثالثة عام 1842، حيث أقام بمصر سبع سنوات، وعقد العزم على دراسة اللغة العربية وطبائع الشعب المصري على حدٍّ سواء؛ فارتدى الزيَّ التقليدي؛ وأتى تتكّره بارعًا إلى درجة خاله العامة تركيًا، ثم عاد بعدها إلى إنكلترا، وهناك مات عام 1876. ومن أهم مؤلفاته كتابه "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم" الذي صدر عام 1836 في جزأين، وبعد هذا الكتاب بعامين نشر لين ترجمة حديثة لكتاب "ألف ليلة وليلة" الذي نُقلت للمرة الأولى قصصُه بدقّة متناهية، و نشر هذه الترجمة تباعًا بين عامي (1838–1840) ملزمًا نهاية كلِّ فصل بملاحظات محكمة موضِّحة[14]، أما الملحقات والإشارات المتعددة التي أضافها لين، فقد حرَّرها لاحقًا ابن أخيه إستانلي لين بول في مؤلف منفرد عام 1883 في لندن بعنوان: "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة"[15] كما ظهرت في النسخة الأصلية عام (1859). تُعَدّ مؤلفات لين إرثًا لا يُستهان به للرحَّالة والمستشرقين الجُدد الذين أخذوا يتداولون كتبه، ويسيرون على نهجه الذي نهجه في مصر؛ فقد حذا حذوه العديد من الرحالة مثل:

---

[12]- انظر: باجو، دانييل هنري: من الصورة الثقافية إلى الخيال، من كتاب "الوجيز في الأدب المقارن، ص: 151.

[13]- المرجع السابق، ص: 147.

[14]- راجع: لين، إدوارد وليم: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين 1833- 1835)، ص: 7-9؛ وراجع أيضًا: بول، إستانلي لين: سيرة القاهرة، تر: حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص: 11.

[15]- لين، إدوارد وليم: عادات المصريين المحدّثين وتقاليدهم (مصر ما بين 1833- 1835)، ص: 8-9.

الأميركي (فرنسيس باركمان) الذي عاش ردحًا من الزمن مع هنود أميركا الشمالية، والهنغاري (أرمينيوس فامبري) الذي تنقَّل بين تتار آسيا الوسطى طوال سنتين منتحِلا شكل أحد الدراويش[16].

- توجُّه دراسةُ صورة الشرق في أدب المستشرقين الانتباه إلى التحديات التي تواجه الهوية الثقافية، ولاسيما هوية العرب؛ فقد ظهرت في نهاية القرن العشرين نظريات واتجاهات فكرية، تبخس الشعوب الضعيفة حقَّها بهدف تعميم النمط الغربي، فمثَّلا: كتب المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما (Francaise Fukuyama) مقالة بعنوان: "نهاية التاريخ" عام 1989[17]، ادَّعى فيها أن نهاية التاريخ تبدأ بقيام الدولة الكلِّية العالمية عبر فوضى الحروب لا عبر الحوار بين الأمم.

إن دراسة صورة الشرق في أدب المستشرقين بهدف استنتاج وجهات النظر المختلفة وتحديد المواقف التي ينطلقون منها في تمثيليهم[18] الشرق يؤدي إلى وضع استراتيجية موضوعية؛ من شأنها أن تمكِّن العرب من التواصل مع مفكري الغرب المتحرِّرين من إسار الاستشراق، وتفعيل جهودهم وتوسيعها، وإيقاف سلسلة الصور والأفكار النمطيِّة المشوِّهة للعرب. إننا بحاجة إلى دعاة التجربة الكونية العالمية لا إلى العولمة مثل المفكر الفرنسي روجيه غارودي (Roger Garaudy) والباحثة كارين آرمسترونغ (Karen Armstrong).

- اتفق معظم الباحثين على أن الصور غير الموضوعيّة التي تقدِّمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدرًا أساسيًا من مصادر سوء التفاهم بين الأمم والدول والثقافات[19] ؛ لهذا تهدف دراسة هذه الصور إلى إزالة سوء الفهم لدى الذات الناظرة إلى الآخر قدر الإمكان، وتهدف– أيضًا– إلى تحديد غاية الذات الناظرة من تقديمها هذه الصور؛ فصورة الشرق التي يقدِّمها الأديب الغربي تلبي حاجات ثقافية، وعلى رأسها حاجتان: الحاجة إلى الغرائبية والحاجة إلى تأكيد الهوية الخاصة[20].

---

[16]– انظر: المرجع السابق، ص: 8.

[17]– انظر: فوكوياما، فرنسيس: نهاية التاريخ في كتاب يوسف إبراهيم الجهماني: نهاية التاريخ وأبحاث أخرى، ط1، دار الحضارة الجديدة، بيروت، 1993، ص: 11.

[18]– لمزيد من التوسع في مفهوم التمثيل راجع: فوكو، ميشيل: الكلمات والأشياء، تر: مطاع الصفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص: 74–75؛ وراجع أيضًا: سعيد، إدوارد: الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، ط6، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2003، ص: 214/54.

[19]– حمود، ماجدة: صورة الآخر في التراث العربي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2010، ص: 9.

[20]– حمود، ماجدة: صورة الآخر في التراث العربي، ص: 17.

• إن دراسة صور الآخر الشّرقي في مقدمة كتاب "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة" ضرورة تفرضها خطورة علاقة التواطؤ التي تربط عالم الاجتماع بالمستشرق في معرفة المجتمعات الشّرقية ودراستها لأهداف كثيرة: أقلُّها حبُّ الاستكشاف، وأخطرها الاستحواذ على الشرق واستعماره؛ "وعلى الرغم من تطور الرؤى والمقاربات، فإن بعض الثوابت القديمة مستمرة في خطاب المستشرق الجديد أو عالم الاجتماع المختصِّ بالشرق"[21].

• أحكم المستشرق لين رسم صورة الآخر الشّرقي في كتابه إلى درجة امتدَّ تأثيرها السلبي إلى بعض الباحثين العرب أنفسهم الذين وقعوا في سحر عجائبية الحياة في الشرق؛ ولم يلتفتوا إلى خطورة سمة[22] ثبات الشرق عبر العصور التي أسَّس لها لين؛ يقول الدكتور علي حسني الخربوطلي[23]: "فجدير بالعرب في العصر الحديث أن يعرفوا كيف كان يعيش أجدادهم في العصور الوسطى؛ وخاصة أننا ورثنا الكثير من أخلاقهم وعاداتهم، وقد أقمنا حياتنا الاجتماعية الحديثة على أسس الحياة الاجتماعية العربية في العصور الوسطى."[24]

– **المنهج:**

إن المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج التحليلي.

2- العرض:

ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور علي حسني الخربوطلي بعنوان "المجتمع العربي في العصور الوسطى"، وبعد مقارنة النسخة التي ترجمها بالنسخة الأصل، وهي بعنوان "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة"، تحقَّقنا من أن المترجم قد اختصر المقدِّمة التي كتبها المحرِّر إستانلي لين بول؛ وبيَّن الخربوطلي في مقدمته غرض لين من الكتاب. يقول الخربوطلي: "ولكن أبرز مؤلفات لين بلا شك هو كتابه (المجتمع العربي في العصور الوسطى) الذي صور فيه جوانب كثيرة من حياة العرب الاجتماعية في العصور الوسطى مع مقارنتها بحياة العرب في القرن الذي عاش فيه لين وهو القرن

[21]– لبيب، الطاهر: التقديم من كتاب "صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص: 28.

[22]– تعني كلمة سمة مجموعة من الخصائص النفسية والاجتماعية التي لها صفة الثبات النسبي، تكوّن في مجملها تنظيمًا ديناميًا متكامًلا؛ ويمكن في ضوئها وصف الشخص والتنبؤ بسلوكه بدرجة كبيرة من الثبات والكمال؛ راجع: شحاته، حسن؛ والنجار، زينب: معجم المصطلحات التربوية والنفسية (عربي–إنكليزي، إنكليزي–عربي)، مراجعة: حامد عمار، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 2003، ص: 198.

[23]– علي حسني الخربوطلي: مدرّس بجامعة عين شمس، ترجم كتاب "المجتمع العربي في العصور الوسطى".

[24]– لين، إدوارد وليم: المجتمع العربي في العصور الوسطى، ص: 6.

التاسع عشر، وقد استعان لين بكثير من الكتب والمراجع العربية، معظمها من المخطوطات، كما أفاد من ترجمته لقصص ألف ليلة وليلة التي تصور حياة العرب في العصور الوسطى... وقد ورث إستانلي لين بول عن عمِّه لين إقباله على الدراسات العربية والإسلامية... وهو صاحب الفضل في تحرير كتاب عمِّه (المجتمع العربي في العصور الوسطى) ونشره، بعد وفاته، في لندن 1883.

إن أكثر كتب لين تداوُلا بيننا هو كتابه (المصريون المحدثون)، وقد ظهرت له ترجمتان عربيتان. أما كتابه (المجتمع العربي في العصور الوسطى)، فيكاد –للأسف– يكون مجهوًلا من معظم العرب؛ بل يكاد يكون من العسير العثور على نسخة منه في الإقليم المصري ومعظم الأقطار العربية؛ وقد يرجع هذا إلى قدم الطبعة التي ترجع إلى عام 1883، وقد عثرت مصادفة على نسخة إنكليزية للكتاب في مكتبة الجامعة السودانية في أثناء قيامي بالتدريس بكلية الآداب بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم؛ فرأيت أن أقوم بترجمتها"[25].

"المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة" عنوانٌ ذو دلالة واضحة على الربط بين الخيال والحقيقة؛ إذ حافظ المحرِّر بول على مقاصد المؤلف عمَّه لين؛ وتتمثل تلك المقاصد في اعتماده المتخيَّل الأدبي "ألف ليلة وليلة" في دراسة المجتمع العربي كما صوَّره في أثناء زياراته مصر، ليخلص إلى نتيجة مفادُها: تماثل ظروف المجتمع العربي في العصور الوسطى؛ أي في الزمن الذي ظهرت فيه "ألف ليلة وليلة"، وظروف المجتمع العربي في القرن التاسع عشر من جهة، وتماثل المجتمع العربي المتخيَّل في "ألف ليلة وليلة" وواقع المجتمع العربي في العصور الوسطى والقرن التاسع عشر؛ أي تماثل المتخيل والواقعي من جهة أخرى. وفيما يأتي تحليل مقدمة كتاب "المجتمع العربي في زمن "ألف ليلة وليلة" التي حرَّرها بول؛ حيث نسلط الضوء فيها على أساليب تنميط الآخر العربي عند المستشرق لين:

1– توسيع نطاق الترجمة الحرفية من النقل إلى النقد بمستوياته الثلاثة: الشرح، والتعليل، والتقويم، وذلك من خلال إضاءة النص بالتعليقات والشروح المبسَّطة لقارئ غير متمكِّن، ومن ثمّ فتْح أقواس تداول هذا الكتاب وتوسيع نطاق قراءته في المجتمع الغربي.

2– توظيف التعليقات والشروح في صناعة مفاتيح قراءة النص الهدف "ألف ليلة وليلة"، وفهْم الشخصيات الأدبية والأفكار، وإبراز غرائبيتها في سياق هذا النص: "ترجم

[25]– لين، إدوارد وليم: المجتمع العربي في العصور الوسطى، تر: علي حسني خربوطلي، ط1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1960، ص: 4–5.

إدوارد وليم لين كتاب (ألف ليلة وليلة)، ولم يكن قانعًا بمجرد نقل النص العربي؛ فقد لاحظ أن الأساليب والأفكار الموصوفة هناك قد تطلبت تعليقًا من شأنه أن يوضح الأفكار لقارئ غير متعلِّم"[26].

3- ومن ثمّ توظيف هذه التعليقات والشروح في عزْل الشخصيات الأدبية الموصوفة كآخر مختلف عن الذات الناظرة المترجمة لتحديد السمات الفردية لهذا الآخر، ومن ثمَّ تعميمها على غالبية أفراد المجتمع الشّرقي. إنّ عزل الشخصيات الأدبية وتعميم سماتها على شخصيات حقيقية نوع من الاختزال المضاعف والتنميط، ووضع الشخصيات الحقيقية (النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأفراد أمته)، في سلَّم حضاري تراتبي؛ يبقى فيه المنظور (الشخصيات الحقيقية في المجتمع الإسلامي) أدنى من الذات الناظرة (المترجم- الغرب)؛ ويدلّ هذا على أنَّ كًلا من المترجم عن العربية (إدوارد وليم لين) والمحرِّر (ستانلي لين بول) قد انطلقا من موقف الرُّهاب "Phopia"[27] في تصوير الآخر الشّرقي: "من أجل هذا ألحق لين نهايةَ كلِّ فصل من الترجمة بسلسلة من ملاحظات الشرح، تصل -غالبًا- إلى حدِّ المقالات المحكمة لتحديد السمات الأساسية في الحياة المحمدية!"[28].

4- أتى "لين" إلى مصر ليكتشف جزءًا من الشرق ولإجابة نفسه عن السؤال: (مَّن هو الغرب؟) أي (من نحن)؛ ففي الوقت الذي يبدأ فيه الإنسان بالتساؤل عن ذاته يأخذ مفهوم "الآخر Other" بالتشكل؛ فتتشطر الأنا إلى ذات وموضوع، ذات تسأل عن نفسها كموضوع غالبًا ما يكون مقدَّسًا عبر النظر إلى الآخر المهمَّش؛ وهذا ما حدث للمترجم والمحرِّر معًا؛ فقد اتسعت دائرة الآخر عندهما لتشمل الفرس والإغريق فضًلا عن المجتمع العربي المصري. فقد عمَّم لين رأيه على الشرق كلّه؛ والنتيجة الطبيعية لمثل هذا التعميم هو تنميط الشخصيات المُتَخيَّلة كآخر حقيقي، يقول لين: ""لقد تم الاعتراف بهذه

---

[26]- Lane. E: ARAB SOCIETY in the Time of The Thousand and One Nights, Dover Publication, Inc, First Edition, Mineola, New York, P. Praface, 2004.

[27]- الرُّهاب كلمة تعني الخوف، وتعبِّر عن حالات خاصة من الرعب، والقلق، والذعر المرتبط بأشياء، أو أماكن، أو تجارب، أو مواقف محدّدة؛ لمزيد من التوسع راجع: بيل، آرثر: الفوبيا، تر: عبد الحكم الخزامي، ط1، الدار الأكاديمية للعلوم، القاهرة، 2011، ص: 6.

- عرَّف دانييل هنري باجو الرُّهاب بأنه عكس الهوس، ويؤدي إلى اعتبار الواقع الأجنبي متدنيًا مقابل تفوق الثقافة الأصلية، وبهذا يؤثر الرُّهاب في الثقافة الأصلية؛ راجع: باجو، دانييل هنري: الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص: 108؛ وراجع أيضًا: باجو، دانييل هنري: من الصورة الثقافية إلى الخيال، من كتاب "الوجيز في الأدب المقارن"، ص: 171؛ وراجع أيضًا: عاقل، فاخر: معجم العلوم النفسية، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1988، ص: 287.

[28]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, P. Praface, 2004.

الملاحظات من قبل المستشرقين منذ مدة طويلة على أنَّها الصورة الأكثر اكتمالا لوجود المجتمع العربي، أو على الأغلب للعرب والفرس والإغريق، لكن تبقى الحياة المحمدية والظروف المعيشة والحدود الفاصلة للأفق الذهني للعرب أكثر وضوحًا من غيرها"[29].

5- إن تعميم صورة الآخر -كما لو كانت صورة حقيقية- يُغري المستشرق الجديد وعالم الاجتماع بدراسة هذا المجتمع دراسة إثنولوجية[30] مرتبطة بالمشروع الاستعماري؛ وتحويله إلى موضوع قابل للاستثمار فيما بعد، وهذا ما دعا إليه البارون تشارلز مونتسيكيو مؤلف "روح الشرائع": "لمّا كانت الشعوب الأوربية قد أبادت شعوب أمريكا؛ فقد كان عليها أن تستعبد شعوب أفريقيا لاستخدامها في استصلاح الأراضي"[31]. ومن الإثنولوجيين الفرنسيين الأوائل الذين انكبُّوا على دراسة المجتمع المغربي، وساروا على نهج مونتسيكيو، كان إ. دوتيّ القائل: "هنا يجد الإنسان الأبيض مصدرًا لثروات ما تزال إلى الآن راكدة، على نحو ما فعلنا بالثروات التي تركناها راكدة في الجزائر أمدًا طويلًا"[32].

6- فقد أفرزت علاقة التواطؤ التي تربط المستشرق بعالم الاجتماع إرثًا ثابتًا؛ يُدين الشرق إلى درجة أصبح فيها مادة مُلهِمة وذات قيمة تربوية في المناهج المدرسية الفرنسية، ونذكر -على سبيل المثال- ما كشفته الباحثة مارين نصر؛ إذ بيّنت أن ميل صورة العربي إلى الثبات يجعل منها في الكتب المدرسية الفرنسية صورة مزمنة، تمتد روافدها إلى ماضي الفتح الإسلامي والحروب الصليبية؛ مرورًا بالاستعمار وبحرب الجزائر، وهي صورة تقوم على ضمنية المجابهة التاريخية وعلى ثنائية التعارض بين ثقافتين[33].

---

[29]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, P. Praface, 2004.

[30]- تعني كلمة "إثنولوجية" علم المجتمعات التقليدية. خصَّص علماء الإثنولوجيا كثيرًا من الجهد لوصف المجتمعات الأخرى؛ وذلك لا يعني أنهم غير مبالين بخصوص مجتمعاتهم؛ إنهم يقارنون بين عدد من المجتمعات أو بين مجتمعهم ومجتمع آخر، ذلك ما نعنيه عندما نقول إن الإثنولوجيا علم مقارن. وابتداء من القرن الثامن عشر، وخاصة بعد الاهتمام المتزايد بأسطورة "المتوحش الطيب"، أدت الإثنولوجيا دورًا إيديولوجيًا في التفكير الغربي؛ إذ لم يكفّ المفكرون عن المقارنة بين الشعوب الموصوفة بـ "البدائيين"، أو "الآخرين"، أو "هم" أو كما يُقال بالألمانية " شعوب الطبيعة"، وبين الشعوب التي توصف بـ "المتحضِّرة"؛ إما لتمجيد البدائي الذي يعيش بحرية ومساواة وفي حالة الطبيعة، وإما لتبجيل الحضارة ولإثبات أنها أسمى من حالات البربرية والبدائية السابقة؛ راجع: تولرا، فيليب لابورتن؛ بيار فارنييه، جان: إثنولوجيا أنتربولوجيا، تر: مصباح الصمد، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2004، ص: 28.

[31]- حليم، عبد الجليل: الفلاحون المغاربة في الإثنولوجيا الكولونيالية بين الجمود وقابلية التحسن، من كتاب "صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ص: 449.

[32]- المرجع السابق، ص: 450.

[33]- راجع: الطاهر، لبيب: المقدمة، من كتاب صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ص: 28.

7- الاعتماد في الشروح والتعليقات على أمرين:

أوّلا: الملاحظات الخاصة بالمترجم لين وبتجربته الفردية في القاهرة في أثناء النصف الأول من القرن (ق.19). وغرض هذه الملاحظات -من وجهة نظر المحرِّر- شرح أحوال الحياة والمجتمع كما كانت في الوقت الذي أخذت فيه "ألف ليلة وليلة" شكلها المجموع الحالي (أي في العصور الوسطى)؛ بمعنى آخر: دراسة أحوال الحياة الحقيقية الواقعية والمجتمع العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر من منظور متخيَّل "ألف ليلة وليلة". ولكي يسوغ المحرِّر توجهه التلفيقي ذاك يبدأ بالاعتراف بجزء من التشويه الذي قام به (شرح المشاهدات الحيَّة في رحلته إلى مصر من منظور متخيل أدبي)؛ ليغطي هدفه الحقيقي، وليتقبله القارئ بقبول حسن: "ثمة مَن يعترض على عنوان الكتاب بالنظر إلى أن القسم الأساسي من الملاحظات يعود إلى ذكريات مستر لين وتجربته الخاصة في القاهرة في أثناء المدة الأولى من القرن الحالي[34]. إن فحوى المسألة -على أيّ حال- أمر قروسطيّ؛ فالملاحظات كلّها لها الغرض نفسه: شرح أحوال الحياة والمجتمع كما كانت في الوقت الذي أخذت فيه "ألف ليلة وليلة" شكلها المجموع الحالي"[35].

ثانيًا: مستخلصات المؤرخين الأكثر شهرة في نهاية العصور الوسطى مثل ابن الجوزي (ت1200م)، والقزويني (ت1283م)، وابن الوردي (ت1349م)، وابن خلدون (ت1406م)، والمقريزي (ت1442م)، والسيوطي (ت 1505م)[36]. وسوَّغ استعانته بهم بأنهم خَبِروا أحوال المجتمع العربي الموصوفة بدقة في "ألف ليلة وليلة"، ونسي أن يسوّغ لنا كيف وجد مثل هذا التماثل بين المتخيَّل والواقعي في العصور الوسطى لتوظيفه في تحديد السمات الإسلامية من جهة، وفي دراسة أحوال المجتمع في القرن التاسع عشر؛ أي في عصر محمد علي من جهة ثانية. قد نسي المترجم ومن بعده المحرِّر أن يَعُدّ المتخيل تمثيلًا "Representation" للواقع لا تماثلاً: "لقد وضع مستر "لين" نسخته المنقحة أو هذا المؤَلَّف؛ مستندًا إلى خلفيات متنوعة، تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر. وبناء على

---

[34]- القرن التاسع عشر.

[35]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: IX, X.

[36]- يقول لين في الفصل الأول "الدين" من كتابه "المجتمع العربي في زمن ألف ليلة وليلة": "وفيما يختص بالأمراض، فقد قرأت في كتاب مخطوط أملكه كتبه السّيوطي في القرن الخامس عشر جاء فيه أن الأمراض المعدية هي ستة: الجدري، والحصبة، والجرب، والتعفن، والسوداء، وسائر الأمراض الوبائية. انظر في الكتاب الأصل:

- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: 7.

أو انظر في الكتاب المترجَم: لين: المجتمع العربي في العصور الوسطى، ص: 12-13.

هذا، فإن نسبة كبيرة من هذه الملاحظات تتألف من مستخلصات المؤرخين الأكثر شهرة والكتاب في نهاية العصور الوسطى مثل: ابن الجوزي والقزويني، وابن الوردي، وابن خلدون، والمقريزي، والسيوطي. إن كلَّ هؤلاء عرفوا المجتمع العربي في الأحوال الموصوفة بدقة في ألف ليلة وليلة"[37]. يقول لين في الفصل الرابع من كتابه "المجتمع العربي في العصور الوسطى": "وخير دليل على أثر قصص ألف ليلة وليلة على عقول المسلمين أن المؤرِّخ المصري المحدِّث الشيخ عبد الرحمن الجبرتي قد أعجب كثيراً بهذه القصص؛ وأعاد كتابة النسخة التي عثر عليها بأسلوبه بعد أن حذف الأجزاء المنافية للأخلاق، ثم أضاف بعض أجزاء من تأليفه أو تأليف غيره من الأدباء. ومما يؤسف له أني –وكثير من أصدقاء الجبرتي– عجزنا عن الاهتداء إلى هذه النسخة التي كتبها الجبرتي"[38].

إن مقارنة بسيطة بين أحوال المصريين الذين عاصرهم لين في زمن محمد علي، ووصفَهم في كتابه الأول "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم"، وبين حال المجتمع العربي في العصور الوسطى، تبيِّن –هذه المقارنة– ثبات سمة جمود المجتمع العربي في عصرين متباعدين تفصل بينهما مدة لا تقل عن أربعة قرون. وكان لين يستعين على تأكيد هذه السمة بما ورد من شرح أحوال الناس في القرون الوسطى في مؤلفات المؤرخين المسلمين. ولإثبات ذلك نقتطف بعض الأمثلة: أورد لين في الفصل العاشر من كتابه "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم" وصفًا لأحوال الناس الذين عاصرهم، ونقدًا لاذعًا لمعتقداتهم، وخلطًا واضحًا بين الدين والخرافات": "يؤكد المصريون أن الجنِّي الماكر والمزعج يستقر فوق السطح أو عند نوافذ المنازل في القاهرة وفي مدن مصرية أخرى، ويتغلغل في ألواح القرميد والحجر في الشوارع والباحات"[39]. وقال أيضًا: "المصريون هم أكثر الشعوب العربية إيماناً بالخرافات؛ فهي تشكل جزءًا مهمًا في ديانتهم، وقد نزلت في آيات القرآن الكريم، وأهم هذه الخرافات إيمانهم بالجن"[40].

أمَّا في كتابه الثاني الذي حرَّره بول (الذي يصف أحوال المجتمع العربي في العصور الوسطى)، فقد أورد وصفًا شبيهًا بما ورد في الكتاب السابق: "ولكن أعجب هذه القصص قد قرأتها في كتاب عن مصر الحديثة: فقد ذكر المؤلف أن الشيخ الصادومي

---

[37]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: X.

[38]– لين، إدوارد وليم: المجتمع العربي في العصور الوسطى، ص: 105–106؛ أو انظر في الكتاب الأصل:
-Lane. E: ARAB SOCIETY in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: 127.

[39]– لين، إدوارد وليم: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، ص: 230.

[40]– المرجع السابق، ص: 227.

نشأ في بلدة (سمنود) في الدلتا، وبرع في علوم السحر الطبيعي، وتوصل إلى مخاطبة الجنِّ وجهًا لوجه، واستطاع أن يأمرهم بالظهور أمام الأشخاص الآخرين وإنْ كانوا من العميان"[41]. وأورد أيضًا: "وفي ختام هذا الفصل[42] أرجو أن يلاحظ القارئ أن هذه المعتقدات تنتشر بين العرب عامة وبين المسلمين خاصة"[43]. انطلق "لين" في دراسة صورة الآخر الشّرقي من العمل الأدبي المتخيَّل؛ وذلك نظرًا إلى أنَّ صورة الشّرقي في هذا العمل تشكّل وثيقة لدراسة اجتماعية حقيقية؛ متناسيًا أن دراسة المتخيل لا تكون منطقية إلا إذا انطلقت من طريقة "المسار الأنثربولوجي" الذي حدّده الباحث الفرنسي جيلبير دوران (G. Durand) " بوصفه شكًلا من أشكال التفاعل والتبادل الدائم الذي يوجد على مستوى المتخيل بين الغرائز الذاتية والتمثيلية، والعوامل الموضوعية الصادرة عن المحيط الكوني الاجتماعي"[44]؛ يفضي ما سبق إلى أن دراسة صورة الآخر تمثّل تتبع السيرورة الأدبية التي تحولت عبرها أفكار ثقافة ما إلى متخيَّل؛ ولهذا لم يَعُد هذا المتخيل مجرد عنصر خرافي، أو صورة، أو رمزًا فقط؛ إنما هو –فضًلا عمَّا سبق– مرآة تعكس تاريخ المعايير الاجتماعية– النفسية في تصور الأنا والآخر؛ أي تعكس "الخيال الاجتماعي"، و"هو تعبير مستعار من المؤرخين"[45].

نستنتج مما سبق أن صورة الآخر مجرد خليط من الأفكار والمشاعر؛ فهي لا تنقل الحقائق على نحو محدّد وواضح؛ ومن ثمَّ تُعدّ صورة الآخر إيديولوجيا "Ideology" 46 الذات الناظرة؛ لأنها في بعض الأوجه وسيلة تمويه الآخر مقابل ستر الذات الناظرة التي تسعى إلى تصنيف الآخر وتنميطه Stereotype".

---

[41]– لين، إدوارد وليم: المجتمع العربي في العصور الوسطى، ص: 79؛ أو انظر في الكتاب الأصل:
-Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: 94.

[42]– فصل "الملائكة والجن".

[43]– لين، إدوارد وليم: المجتمع العربي في العصور الوسطى، ص 48. أو انظر في الكتاب الأصل:
-Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: 46.

[44]– كاظم، نادر: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، وزارة الإعلام الثقافة والتراث الوطني، مملكة البحرين، 2004، ص: 38.

[45]– باجو، دانييل هنري: "من الصورة الثقافية إلى الخيال"، من كتاب "الوجيز في الأدب المقارن"، ص: 147.

[46]– لمزيد من التوسع في مفهوم الإيديولوجيا؛ راجع: علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء، 1985، ص: 41؛ وراجع أيضًا: إسماعيل، قباري محمد: علم الاجتماع السياسي وقضايا التخلف والتنمية والتحديث، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1980، ص: 257/260/264-265.

8- رأى المحرِّر أن عمل لين -وهو وليد تجربته القصيرة في مصر- عمَلا يستحق شرف الإضافة إلى تسجيلات المؤلفين المسلمين القروسطيين؛ ولكنه لم يوضح لنا كيف يمكن فهم غياب التباين الشديد بين مجتمعين في عصرين مختلفين تفصل بينهما مدة لا تقلّ عن أربعة قرون (العصور الوسطى والقرن التاسع عشر)، واكتفى بإحالة غياب المفارقة التاريخية على ذمّة عمّه لين: " أضاف مستر لين إلى تسجيلات هؤلاء المؤلفين القروسطيين نتائج تجربته الشخصية، وكان مسؤولًا عن غياب المفارقة التاريخية بالنسبة إلى المجتمع العربي في زمن عاش فيه صلاح الدين الأيوبي، وبيبرس، وبرقوق، هذا المجتمع الذي حفظ له المؤرخون القوميون تسجيلات حيّة وكاملة، وقد ظلّت راسخة لا تختلف-غالبًا- عن مجتمع "محمد علي"[47].

9- ولنفي أيّ شك في صدق الصورة السلبية التي رسمها للمجتمع الشّرقي الذي بدا له بدائيًا ثابتًا، يعود لتأكيد على هذه السمة على نحو مباشر بكثير من المبالغة. أيمكن لتلك الصورة أن تكون منطقية، وهي حصيلة خبرة اثنتي عشْرة سنة قضاهن "لين" في مصر؟ يمكن القول إنه من غير المعقول أن تضاهي خبرته خبرة المقريزي، والسيوطي، وابن خلدون أبناء ذلك المجتمع: "لقد أمضى مستر لين سنوات كثيرة لتحصيل تلك المعرفة الحميمة بين سكان القاهرة. إن الحياة التي شهدها لين كانت هي نفسها الحياة التي وصفها المقريزي والسيوطي، وكان لين يفضّل التنقّل في المجتمع العربي النقيّ (في زمن محمد علي) الذي كان في الروح، والعادات، وأساسيات الحياة المجتمعَ نفسَه الذي سبق للمرء أن افتخر فيه بكلّ من أعلامه: هارون الرشيد، جعفر البرمكي، وأبي نواس. إن استمرار تقاليد المجتمع العربي ظل صامدًا على نحو جزئي من عهد الخلافة الأول وحتى نهاية القرن الحالي"[48].

10- يوضِّح تكرار سمة ثبات المجتمع الشّرقي هدفَ الكاتب، وهو التصريح بالدور الحضاري لأوربا المنشغلة بتغيير وجه الشرق الثابت؛ وهكذا أصبح هدف الكاتب هو توظيف ترجمته ودراسته لأغراض استعمارية باسم الانتداب، سبق وأن سجلها التاريخ: "ومثل هذا على الأقل نجده في تلك الحواضر الكبرى الإسلامية من قبيل القاهرة، ودمشق، وبغداد التي كان التأثير الأوربي فيها مشغولًا بمحو تلك التقاليد. حاولت القاهرة أن تكون خلال مدة طويلة من الزمن الابنة غير الشرعية لباريس (المهجنة المزيفة) بدًلا من المدينة الرائعة للمعزّ وصلاح الدين الأيوبي، وحاولت أن تنسى تقاليدها في الأيام الظافرة للإسلام، وتنسى المآثر الخالدة للأبطال النبلاء في الحروب الصليبية. سيكون من المستحيل الآن جمع التفاصيل

[47]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: X, XI.
[48]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: XI.

الدقيقة للمجتمع المحمدي على نحو صاف، هذا المجتمع الذي وجده مستر لين جاهزًا وماثلًا أمام عينيه وبحوزته. ولهذا من حسن الحظ أن يكون تسجيل المجتمع العربي المستمر بثباته بدءًا من عهد الخلافة؛ مرورًا بالعصر المملوكي في العصور الوسطى؛ وصولًا إلى مصر في عهد محمد علي؛ محفوظًا بإخلاص في العملين "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم" وفي ملاحظات "ألف ليلة وليلة"، اللذين قُدّما أول مرة على نحو منفصل ومتعاقب"[49].

3- الخاتمة:

نخلص مما سبق إلى أنَّ المترجم لين انطلق في دراسة المجتمع الشّرقي -ولاسيَّما العرب- بدوافع وظيفيَّة أكثر منها دوافع الرّغبة في اكتشاف هذا الآخر مقارنة بنفسه؛ فرسم للقارئ الغربي (الهدف) الطريقَ ليصل إلى النتيجة المسبقة التي أعدّها لنفسه وللآخرين؛ وهي تنميط الآخر الشّرقي في صورة سلبية؛ فاختصر الجانب الإيجابي في الآخر في رغبته بالتوجه إلى الحضارة الغربية وإدارة الظهر -كليًّا- للحضارة الإسلامية! إنّ نسبة هذا التوجه للآخر الشّرقي يعني -على نحو صريح- الادِّعاء المغلوط فيه بتخلِّي الشّرقي عن هويته الحقيقية لاستيراد أخرى غربية، ويعني -أيضًا- التسليم بثقافة الاختراق والاستتباع وفتح الطريق للعولمة لا للعالمية.

وثمّة مفاتيح أخرى لتنميط الآخر الشّرقي قد تمّ استنتاجها، مثل تحكيم الذات الناظرة بالتراث الأدبي للذات المنظور إليها، والادِّعاء باعتماده في رأيه على الأفكار الواردة لدى مؤرخي الذات المنظور إليها؛ غافلًا:

أوّلا: المفارقة بين قدرته كزائر حديث العهد باللغة والمجتمع الشّرقي وبين قدرات مؤرخي الشرق كأبناء هذا المجتمع.

ثانيًا: المفارقة المسيئة التي تنتج عن دراسة المجتمع الشّرقي من خلال المتخيّل كما لو كان صورة مماثلة للمجتمع لا تمثيلًا له.

ثالثًا: المفارقة الخارقة التي تنتج عن استباحته للمنطق في تنميط الشّرقي في صورة سلبية ثابتة وتعميمها على غالبية المجتمع الشّرقي على مرّ العصور؛ ليخلص إلى نتيجة مفادها: إحاطة الشّرق بالعجائبية والبدائية الثابتة مقابل الغرب المتحضّر؛ فالزمن متوقف في الشرق غير التاريخي، في حين هو آخذ بالاستمرار في الغرب التاريخي صاحب الدولة الكليّة العالمية التي تمثّل بنموذجها نهاية التاريخ التي بشَّر بها الفيلسوف الألماني هيجل، ومن ثمّ حمل لواءَها الفيلسوف الأمريكي فرانسيس فوكوياما.

---

[49]- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights, 2004, P: XI, XII.

قائمة المصادر والمراجع:

أوّلا: المصادر:

1. زناني، أنور محمود: قاموس المصطلحات التاريخية إسلامي، وسيط، حديث، ومعاصر (إنكليزي–عربي)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2007.

2. شحاته، حسن؛ والنجار، زينب: معجم المصطلحات التربوية والنفسية (عربي–إنكليزي، إنكليزي–عربي)، مراجعة: حامد عمار، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 2003.

3. صليبيا، جميل: المعجم الفلسفي: جـ1، دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة، بيروت، 1982.

4. عاقل، فاخر: معجم العلوم النفسية، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1988.

5. علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت؛ سوشبريس، الدار البيضاء، 1985.

6. وهبة، مجدي؛ والمهندس، كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.

ثانيًا: المراجع العربية:

1. إسماعيل، قباري محمد: علم الاجتماع السياسي وقضايا التخلف والتنمية والتحديث، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1980.

2. الجابري، محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، نقد العقل العربي(1)، ط10، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.

3. حمود، ماجدة: صورة الآخر في التراث العربي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2010.

4. علال، خالد كبير: الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون ومحمد الجابري–دراسة تحليلية هادفة، ط1، دار المحتسب، الجزائر، 2008.

5. فوكوياما، فرنسيس: "نهاية التاريخ" في كتاب يوسف إبراهيم الجهماني: نهاية التاريخ وأبحاث أخرى، ط1، دار الحضارة الجديدة، بيروت، 1993.

6. كاظم، نادر: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، وزارة الإعلام الثقافة والتراث الوطني، مملكة البحرين، 2004.

ثالثًا: المراجع المترجمة:

1. أرمينكو، فرانسواز: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1986.

2. باجو، دانييل هنري: الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.

3. باجو، دانييل هنري: "من الصورة الثقافية إلى الخيال"، من كتاب "الوجيز في الأدب المقارن"، إشراف: بيير برونيل، وإيف شيفريل، تر: غسّان السيد، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1999.

4. بول، إستانلي لين: سيرة القاهرة، تر: حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.

5. بيل، آرثر: الفوبيا، تر: عبد الحكم الخزامي، ط1، الدار الأكاديمية للعلوم، القاهرة، 2011.

6. تولرا، فيليب لابورت؛ بيار فارنييه، جان: إثنولوجيا أنتربولوجيا، تر: د. مصباح الصمد، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2004.

7. سعيد، إدوارد: الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، ط6، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2003.

8. شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.

9. فوكو، ميشيل: الكلمات والأشياء، تر: مطاع الصفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

10. لين، إدوارد وليم: عادات المصريين المحدّثين وتقاليدهم (مصر ما بين 1833-1835)، تر: سُهير دسُّوم، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م.

11. لين، إدوارد وليم: المجتمع العربي في العصور الوسطى، تر: علي حسني خربوطلي، ط1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1960.

رابعًا: المرجع الأجنبي:

1- Lane. E: Arab Society in the Time of The Thousand and One Nights. Dover Publication, Inc, First Edition , Mineola, New York. 2004